

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنَعِي عَيْبَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 150]

✽ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا تَقَرَّرَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ أَنَّ تَحْوِيلَ الْقِبْلَةِ فَرَضٌ فِي حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ حَقٌّ ثَابِتٌ، جَاءَ الْخِطَابُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُتَضَمِّنًا تَكَرَّارَ الْأَمْرِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، عَاطِفًا عَلَيْهِ الْأَمْرَ لِأُمَّتِهِ، لِيَعْمَّ الْحُكْمَ الْجَمِيعَ، عَنْ طَرِيقِ النَّصِّ.

✽ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿حُجَّةٌ﴾: مِنَ الْجَذْرِ (حَجَجَ)، وَالْحُجَّةُ الْبُرْهَانُ، وَهِيَ فِي الْأَصْلِ كَأَنَّهَا ظَرْفٌ قَوِيٌّ صُلْبٌ لِلرَّأْيِ، يَحْفَظُهُ وَيَدْعِمُهُ، وَالْمُحَاجَّةُ: الْمَجَادَلَةُ، مِنْ هَذَا، فَكُلُّ يَأْتِي بِحُجَّتِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ [البقرة: 258]، وَمِنْهُ الْفِعْلُ (حَاجَّ) وَمُضَارِعُهُ، وَ(يَتَحَاجُّونَ)، وَ(حُجَّةٌ) بِالضَّمِّ (1)، وَقَدْ جَعَلَ ابْنُ فَارِسٍ وَالرَّاغِبُ الْأَصْلَ مِنَ الْقَصْدِ: أَنَّ كُلَّ قَصْدٍ حَجٌّ، وَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ الْحُجَّةُ مُشْتَقَّةً مِنْ هَذَا؛ لِأَنَّهَا تَقْصِدُ، أَوْ بِهَا يُقْصَدُ الْحَقُّ الْمَطْلُوبُ (2)، "وَالْحُجَّةُ: الدَّلَالَةُ الْمُبَيِّنَةُ لِلْمَحَجَّةِ، أَيِ: الْمَقْصَدِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي يَقْتَضِي صِحَّةَ أَحَدِ النَّقِیْضَيْنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، فَجَعَلَ مَا يَحْتَجُّ بِهِ الَّذِينَ ظَلَمُوا، مُسْتَشْنَى مِنَ الْحُجَّةِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ حُجَّةً (3).

عَطْفُ أَمْرِ الْأُمَّةِ
عَلَى أَمْرِ النَّبِيِّ
تَعْمِيمٌ
لِلْحُكْمِ

الْحُجَّةُ الدَّلَالَةُ
الْمُبَيِّنَةُ
لِلْمَحَجَّةِ

(1) جبل، العجم الاشتقاقي للؤصل: (حجج).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حجج).

(3) الراغب، المفردات: (حجج).

(2) ﴿ظَلَمُوا﴾: مِنَ الْجَذْرِ (ظلم)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الضِّيَاءِ وَالنُّورِ، وَوَضَعَ الشَّيْءَ غَيْرَ مَوْضِعِهِ تَعْدِيًّا⁽¹⁾، وَحَجَبَ مَا يَنْبَغِي أَوْ مَا يُسْتَحَقُّ، أَيْ مَنَعَهُ، كَمَنَعَ الضُّوءَ فِي حَالَةِ الظُّلْمَةِ، وَكَمَنَعَ الْمَطَرِ عَنِ الْأَرْضِ "الْمَظْلُومَةِ"، وَالظَّلَامُ يَحْجُبُ الرُّؤْيَةَ⁽²⁾، وَالظُّلْمُ: الْمَيْلُ عَنِ الْقَصْدِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: الرِّمَ هَذَا الصُّوبَ، وَلَا تَظْلِمُ عَنْهُ، أَيْ لَا تَجْرُ عَنْهُ، وَالظُّلْمَةُ: الْمَانِعُونَ أَهْلَ الْحُقُوقِ حُقُوقَهُمْ⁽³⁾.

أَمَرَ اللَّهَ
الْمُؤْمِنِينَ أَلَّا
يُظْلِمَ بَعْضُهُمْ
بَعْضًا

(3) ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾: مِنَ الْجَذْرِ (خشي)، وهو يَدُلُّ عَلَى خَوْفٍ وَدُعْرِ، فَالْخَشْيَةُ الْخَوْفُ، وَالْخَشْيَةُ فِيهَا اسْتِشْعَارُ النَّفْسِ جِدَّةً تَقَعُ لَا مَهْرَبَ مِنْهَا، إِذَا اسْتُوجِبَتْ، وَفِيهَا -مع ذلك- اسْتِيحَاشٌ وَجَفَوَةٌ وَخُشُونَةٌ، قَدْ يُعْبَرُ عَنْهَا التَّوَتُّرُ الْحَادُّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: 39]، فَالْخَشْيَةُ فِيهَا اسْتِشْعَارُ شَيْءٍ مَعَ الْخَوْفِ، أُسَاسُهُ تِلْكَ الْخُشُونَةُ وَالْجَفَافُ⁽⁴⁾، وَلِهَذَا فَالْخَشْيَةُ أَخْصَصُ مِنَ الْخَوْفِ، قَالَ الرَّاعِبُ: "الْخَشْيَةُ: خَوْفٌ يَشُوبُهُ تَعْظِيمٌ، وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ ذَلِكَ عَنْ عِلْمٍ بِمَا يُخْشَى مِنْهُ"⁽⁵⁾.

مَنْ خَشِيَ
اللَّهَ اسْتَشْعَرَ
عَظَمَتَهُ

(4) ﴿وَلَا تُتَمَّ﴾: مِنَ الْجَذْرِ (تمم)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى الْكَمَالِ⁽⁶⁾، يُقَالُ تَمَّ الشَّيْءُ، إِذَا كَمَلَ، وَأَتَمَمْتُهُ أَنَا، وَذَلِكَ بِاسْتِيفَاءِ جِزْمِ الشَّيْءِ حَجْمَهُ، مُتَمِّيزًا عَنْ غَيْرِهِ، كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَكَالتَّامِّ الْخَلْقِ مِنَ النَّاسِ، وَالْخَيْلِ، وَالنَّبْتِ، وَلَيْلِ التَّامِّ: أَطْوَلُ مَا يَكُونُ مِنْ لِيَالِي الشِّتَاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتَمٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: 142]، أَيْ بَلَّغَهَا كَامِلَةً، وَقَالَ أَيْضًا: ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: 187].

كُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ
مِنْ مُشْتَقَّاتِ
التَّامِّ، هُوَ
بِمَعْنَى اسْتِيفَاءِ
الشَّيْءِ كَمَالَهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).

(2) جبل، للعجم الاشتقاقي للوصل: (ظلم).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (ظلم).

(4) جبل، للعجم الاشتقاقي للوصل: (خشي).

(5) الراغب، المفردات: (خشي).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، جبل، للعجم الاشتقاقي للوصل: (تمم).

وَكُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ هَذَا التَّرْكِيبِ، هُوَ بِمَعْنَى اسْتِيفَاءِ الشَّيْءِ حَاجَمَهُ أَوْ كَمَالَهُ⁽¹⁾.

مَنْ لَيْسَ
النَّعْمَةُ بِلا شُكْرِ
لِلْخَالِقِ، نَزَعَهَا
اللَّهُ عَنْهُ أَمَامَ
الْخَلْدِ

(5) ﴿نَعْمَتِي﴾: مِنَ الْجَذْرِ (نعم)، وهو أَصْلٌ⁽²⁾ يَدُلُّ عَلَى تَرْفُّهِ وَطِيبِ عَيْشٍ وَصَلَاحٍ، وَعَلَى رِقَّةِ الشَّيْءِ أَوْ لُيُونَتِهِ وَخُلُوهٍ مِنَ الْغِلْظِ وَالْخَشُونَةِ، وَمِنْهُ النَّعْمَةُ، وَالنَّعْمَاءُ وَالنَّعِيمُ، وَالنَّعْمَى: الْخَفْضُ وَالِدَّعَةُ وَغَضَارَةُ الْعَيْشِ، وَالْمَالُ (لَيْنٌ وَيُسْرٌ)، وَكُلُّ مَا يُنْعَمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى عَبْدِهِ بِهِ مِنْ مَالٍ وَعَيْشٍ، يُقَالُ: لِلَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ نِعْمَةٌ، وَالنَّعْمَةُ: الْمِنَّةُ. وَكَذَا النَّعْمَاءُ، وَالنَّعْمَةُ: التَّنْعُمُ وَطِيبُ الْعَيْشِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَلَكَهِنَّ﴾ [الدَّحْان: 27].

الْهُدَى الرَّشَادُ
وَالدَّلَالَةُ، بَعِيدًا
عَنِ الضَّلَالَةِ

(6) ﴿تَهْتَدُونَ﴾: مِنَ الْجَذْرِ (هدى)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَبَيُّنِ الْوَجْهَةِ، أَوْ تَبْيِينِهَا بِالتَّقَدُّمِ أَوِ الْكَشْفِ، وَعَلَى التَّقَدُّمِ لِلْإِرْشَادِ: هَدْيَتُهُ الطَّرِيقَ هِدَايَةً، أَيْ تَقَدَّمَتْهُ لِأُرْشُدِهِ⁽³⁾، كَمَا تَتَبَيَّنُ الْوَجْهَةُ مِنْ اتِّجَاهِ أَوَائِلِ الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ⁽⁴⁾، وَالْهُدَى: الرَّشَادُ وَالِدَّلَالَةُ، ضِدُّ الضَّلَالِ.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

تَحْوِيلُ الْقِبْلَةِ
مِنْ تَمَامِ نِعْمَةِ
اللَّهُ عَلَى الْأُمَّةِ

يَتَكَرَّرُ الْأَمْرُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِفَرْضِ الْإِتِّجَاهِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَيَشْمَلُ هَذِهِ الْمَرَّةَ الْأُمَّةَ جَمِيعًا، فَيَكُونُ الْأَمْرُ شَامِلًا لَهُمْ بِالنِّصِّ، فَمَنْ أَيْ مَكَانَ خَرَجَتْ -أَيُّهَا النَّبِيُّ- فَتَوَجَّهَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ-، بِأَيِّ قُطْرٍ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ نَحْوَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ؛ وَإِنَّمَا أَمَرْتُكُمْ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ دُونَ صَخْرَةِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، لِتَدْفَعُوا حُجَجَ النَّاسِ؛ فَإِنَّ الْيَهُودَ رَبَّمَا قَالُوا: الْمَنْعُوتُ فِي التَّوْرَةِ قِبْلَتُهُ الْكَعْبَةُ، وَهَذَا يَسْتَقْبِلُ الصَّخْرَةَ، أَوْ إِنَّ مُحَمَّدًا يُخَالِفُ

(1) جبل، للعجم الاشتقاقي للؤصل: (تمم).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، جبل، للعجم الاشتقاقي للؤصل: (نعم).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هدى).

(4) جبل، للعجم الاشتقاقي للؤصل: (هدى).

دِينَنَا، وَيَسْتَقْبِلُ قِبْلَتَنَا! وَالْمُشْرِكُونَ رُبَّمَا قَالُوا: يَدَّعِي مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ، وَيُخَالِفُ قِبْلَتَهُ، فَأَمَرْتُكُمْ بِاسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ، دَفْعًا لِحُجَجِ النَّاسِ، إِلَّا الْمَعَانِدِينَ مِنْهُمْ، فَلَا يَنْقَطِعُ شَغْبُهُمْ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا تَحَوَّلَ إِلَى الْكَعْبَةِ إِلَّا مِيلًا إِلَى دِينِ قَوْمِهِ، وَحُبًّا لِبَلَدِهِ، أَوْ بَدَأَ لَهُ فَرَجَعَ إِلَى قِبْلَةِ آبَائِهِ، وَيُوشِكُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى دِينِهِمْ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي بِامْتِنَالِ الْأَوَامِرِ، وَاجْتِنَابِ النَّوَاهِي؛ وَلِيَكُونَ ذَلِكَ التَّحْوِيلُ مِنْ تَمَامِ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ، بِاخْتِيَارِ أَكْمَلِ الشَّرَائِعِ لَكُمْ، وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ إِلَى الْحَقِّ وَالصَّوَابِ⁽¹⁾.

❁ الإيضاح اللغويّ والبلاغيّ:

تكرار الأمر بتولية الوجه إلى القبلة:

في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، إطناب؛ حيث كرّر الأمر بتولية الوجه إلى شَطْرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وفائدة هذا الإطناب التأكيد على أهميّة القبلة، وتعظيم التّولي إليها، وقد تكررّت بلفظها؛ لزيادة البيان والتأكيد، وإفادة أن لا حجة عليهم فيه؛ لقوله: ﴿لَئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾⁽²⁾.

بلادة عظمي خطاب الأمة على خطاب النّبي ﷺ:

عُطِفَ قَوْلُهُ: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ عَلَى صَدْرِ الْآيَةِ: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾، وَالْمَقْصَدُ التَّعْمِيمُ فِي هَذَا الْحُكْمِ فِي السَّفَرِ لِلْمُسْلِمِينَ، لِئَلَّا يَتَوَهَّم تَخْصِيصُهُ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَحَصَلَ مِنْ تَكْرِيرِ مُعْظَمِ الْكَلِمَاتِ تَأْكِيدٌ لِلْحُكْمِ لِيَتَرْتَبَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿لَئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾⁽³⁾، وَلَكِي يَكُونَ مَوْقِفُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَمْرِ الْقِبْلَةِ تَابِعًا لِمَوْقِفِ نَبِيِّهِمْ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، وَأَنَّ الْأَمْرَ لَا يَخْصُ النَّبِيَّ ﷺ وَحْدَهُ، بَلْ يَخْصُ الْأُمَّةَ بِأَكْمَلِهَا.

تَكَرَّرَ لَفْظُ الْقِبْلَةِ
لِزِيَادَةِ الْبَيَانِ
وَالتَّأْكِيدِ

أَمْرُ الْقِبْلَةِ ذُو
شَأْنٍ عَظِيمٍ،
وَهُوَ يَعْنِي الْأُمَّةَ
وَنَبِيَّهَا

(1) ابن عجيبة، البحر اللديد: 1/181.

(2) اللاوردي، النكت والعيون: 1/207.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/45.

أثر التكرار في تجلية المعنى وتأكيده:

التكرار يكون
لبناء معانٍ
عدّة، وتأكيدها
بألفاظٍ متطابقة

التكرار في الكلام البليغ لا يأتي حشواً ولا تزيداً، بل له غايةٌ دلاليةٌ، وفي الآية هنا أفاد التكرار التأكيد، وذلك أنه إنما كرّر لأنّ هذا من مواضع التوكيد؛ لأجل النسخ الذي نقلوا فيه من جهة إلى جهةٍ للتقرير⁽¹⁾، فالتكرار يؤكد النسخ، ويُقرّر الاتجاه الجديد؛ والنسخ من مظانّ الفتنة والشبهة، فكان حريّاً أن يؤكد أمرها، ويُعاد ذكرها مرّةً بعد أخرى⁽²⁾؛ لأنّ موضوع القبلة له شأنٌ عظيمٌ، فلذا اقتضى مزيداً من التأكيد والاهتمام، والتكرار من مفيدات التأكيد وبيان الاهتمام.

وثمة سببٌ بياني آخر، فهو أراد بيان علة التغيير، فبعد أن أنجز النسخ، والتكليف بالقبلة الجديدة، كرّر النصّ ليبيّن العلة من ذلك كلّهُ، وأعيد لفظ الجملة السالفة، ليبنى عليه التعليل، بقوله: ﴿لَئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾⁽³⁾.

الردّ على
المنكرين، بحجةٍ
دامغةٍ وإفصاحٍ
مُبينٍ

تكرّر الأمر باستقبال النبي ﷺ الكعبة ثلاث مرّاتٍ، وتكرّر الأمر باستقبال المسلمين الكعبة مرتين، وتكرّر أنه الحقّ ثلاث مرّاتٍ، وتكرّر تعميم الجهات ثلاث مرّاتٍ، والقصد من ذلك كلّ الاهتمام باستقبال الكعبة، والتحذير من التساهل في ذلك؛ تقريراً للحقّ في نفوس المسلمين، وزيادة في الردّ على المنكرين، وفيه إظهارٌ أحقّية الكعبة بذلك، لأنّ الذي يكون على الحقّ، لا يزيده إنكار المنكرين إلّا تصميماً، والتصميم يستدعي إعادة الكلام الدالّ على ما صمّم عليه؛ لأنّ الإعادة تدلّ على التّحقيق في معنى الكلام⁽⁴⁾.

اتبعت الآيات طريقة تنويع الجمل والعبارات، لتخفيف كثافة

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 3/406.

(2) ابن عجيبة، البحر اللديد: 1/181.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/45.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/45.

ذكر فوائد
تحويل القبلة
للتعليل والإقناع

التَّكْرَارِ، وَهَذِهِ الْجُمْلُ تَحْمِلُ مَعَانِيَ يَحْتَاجُهَا النَّصُّ، فَأَفَادَتْ زِيَادَةَ الْبَيَانِ، كَمَا أَفَادَتْ دَفْعَ الْمَلَلِ.

وَقَدْ ذَكَرَ فِي خِلَالِ ذَلِكَ مِنْ بَيَانِ فَوَائِدِ هَذَا التَّحْوِيلِ، وَمَا حَفَّ بِهِ، مَا يَدْفَعُ قَلِيلَ السَّامَةِ الْعَارِضَةِ، لِسَمَاعِ التَّكْرَارِ، فذَكَرَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٦١﴾﴾، وَذَكَرَ قَوْلُهُ: ﴿لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾^(١).

التَّعْلِيلُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾:

يَكُونُ تَرْكِيبُ ﴿لَيْلًا﴾ مِنْ ثَلَاثِ أَدَوَاتٍ مُتَجَاوِرَةٍ: لَمْ كَيَّ، وَأَنَّ الْمَصْدَرِيَّةَ، وَلَا النَّافِيَّةَ، وَالْمَعْنَى الَّذِي تُفِيدُهُ التَّعْلِيلُ، فَقَوْلُهُ: ﴿لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، عِلَّةٌ لِقَوْلِهِ: ﴿قُولُوا﴾، أَيَّ شَرَعْتُ لَكُمْ ذَلِكَ حَتَّى لَا يَكُونَ لَدَى النَّاسِ حُجَّةٌ عَلَيْكُمْ^(٢)، وَفَائِدَةُ التَّعْلِيلِ تَظْهَرُ فِي أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ أَرَادَ بَيَانَ ارْتِبَاطِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بِالْوَاقِعِ الْإِتِّصَالِيِّ مَعَ النَّاسِ فِي إِقَامَةِ الْحُجَجِ، وَنَصَبِ الْبَيِّنَاتِ.

التَّعْرِيفُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِلنَّاسِ﴾ لِلإِسْتِغْرَاقِ، وَيَشْمَلُ مُشْرِكِي مَكَّةَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ وَغَيْرَهُمْ، وَمِنْ ثَمَّ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْحُجَجِ وَالشُّبْهِ.

سِرُّ إِطْلَاقِ لَفْظِ الْحُجَّةِ عَلَى الشُّبْهِ:

الْحُجَّةُ لَا تُطْلَقُ حَقِيقَةً، إِلَّا عَلَى الْبُرْهَانِ وَالذَّلِيلِ النَّاهِضِ الْمُبَكِّتِ لِلْمُخَالَفِ، وَأَمَّا إِطْلَاقُهَا عَلَى الشُّبْهِ فَمَجَازٌ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الشُّورَى: 16]^(٣)، وَتَسْمِيَةُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ الشُّنْعَاءِ حُجَّةً، مَعَ أَنَّهَا أَفْحَشُ الْإِبْطَالِ، لِأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ وَمَنْ تَابَعَهُمْ كَانُوا يَسُوقُونَهَا مَسَاقَ الْحُجَجِ، وَيُورِدُونَهَا مَوْقِعَهَا، فَسُمِّيَتْ حُجَّةً مَجَازًا؛ تَهَكُّمًا بِهِمْ^(٤).

ارتباط الأحكام
الشرعية بالواقع
الاتصالي مع
الآخر

الاستغراق
لشمول جميع
الحجج والشبه

التهكم بمن
يتقوى بالباطل
والأراجيف

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/45.

(2) أبو القاسم النيسابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 1/128.

(3) التفسير، مدارك التنزيل: 1/142، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/46-47.

(4) البروسوي، روح البيان: 255 1/254.

تردد الاستثناء بين الاتصال والانقطاع:

الجمع بين
المعنى التهكمي
في التصل،
وتأكيد محاجة
الظالمين في
النقطع

الاستثناء في قوله تعالى: ﴿لَئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يحتمل أن يكون متصلًا، وأن يكون منقطعًا⁽¹⁾.
فمعناه على الاتصال: أن الذين ظلموا لهم حجة، ولكن الحجة هنا ليست على الحقيقة، فأطلق عليها حجة، لأنهم يسوقونها مساق البرهان، أي: فاستثناء الذين ظلموا يقتضي أنهم يأتون بحجة، أي بما يشبه الحجة، فحرف ﴿إِلَّا﴾ يقتضي تقدير لفظ حجة مستعملًا في معناه المجازي⁽²⁾.

وأما معناه على الانقطاع: فإن ﴿إِلَّا﴾ في الاستثناء المنقطع لها معنيان: أحدهما: أن يكون الذي بعدها مستأنفًا، ف ﴿إِلَّا﴾ بمنزلة (لكن)، والذي بعد (لكن) مستأنف؛ كقوله ﷺ: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: 23]، معناه: لكن ما قد سلف فأنتم غير مؤخذين به.

والآخر: أن يكون مؤكدًا لما قبله، وذلك أن الرجل إذا قال: ارتحل الناس إلا الأثقال، أكد ارتحال الناس بقوله: (إلا الأثقال)، فإنه إذا لم يبق إلا الأثقال، كان القوم كلهم مرتحلين، وكان تأويله: ارتحل الناس كلهم، فهذان المعنيان تحتاملهما الآية: لأن الظالمين، وإن لم يكن لهم حجة، فهم يموهون ويحتجون بالباطل، وأيضًا: فإنه إذا لم يكن لأحد عليهم حجة إلا من كان ظالمًا، كان في هذا تأكيد لنفي الحجة⁽³⁾، فيكون معناه: ولكن الذين ظلموا يحاجونكم بالباطل والشبهة، كقول النابغة:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سَيُوفَهُمْ *** بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

أي: إن كان فيهم عيب فهذا، وليس هذا بعيب، فإذا لا عيب فيهم، وإن كان على المؤمنين حجة فللظالم، ولا حجة له، فليس إذا عليهم حجة⁽⁴⁾.

(1) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 1/101.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/47.

(3) الواحدي، التفسير البسيط: 410-3/411.

(4) أبو القاسم النيسابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 1/128، وكذلك حاشية الشهاب على البيضاوي: 2/257.

وقد ذَكَرَ الْأَخْفَشُ وَالْفَرَّاءُ وَأَبُو عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى، أَنَّ (إِلَّا) تَأْتِي عَاطِفَةً، بِمَنْزِلَةِ الْوَائِ فِي التَّشْرِيكِ بَيْنَ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى، وَعَلَيْهِ اعْتَبَرُوا ﴿إِلَّا﴾ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النمل: 10-11]، وَتَأَوَّلَهَا الْجُمُهورُ عَلَى الْاسْتِثْنَاءِ الْمُنْقَطِعِ، وَاسْتَشْهَدُوا بِقَوْلِ الْفَرَزْدَقِ:

مَا بِالْمَدِينَةِ دَارٌ غَيْرُ وَاحِدَةٍ *** دَارُ الْخَلِيفَةِ إِلَّا دَارُ مَرَوَانَا⁽¹⁾

بِلَاغَةُ التَّوَسُّطِ بَيْنَ الْكَمَالَيْنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنِي﴾:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنِي﴾ عَظْفٌ بَيْنَ إِنْشَاءِ طَلْبِيٍّ صَوْرَتُهُ النَّهْيُ، وَإِنْشَاءِ طَلْبِيٍّ صَوْرَتُهُ الْأَمْرُ، وَهَذَا مِنَ التَّوَسُّطِ بَيْنَ الْكَمَالَيْنِ، أَي: كَمَالِ الْإِتِّصَالِ وَكَمَالِ الْإِنْقِطَاعِ، فَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾، أَي: فَلَا تَخَافُوا مَطَاعِنَهُمْ فِي قَبْلَتِكُمْ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَضُرُّونَكُمْ ﴿وَأَخْشَوْنِي﴾، فَلَا تُخَالِفُوا أَمْرِي⁽²⁾.

جَمَعَ النَّظْمُ بَيْنَ النَّهْيِ ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ وَالْأَمْرِ ﴿وَأَخْشَوْنِي﴾ وَقَدَّمَ النَّهْيَ عَلَى الْأَمْرِ؛ لِمَقَامِ التَّخْلِيَةِ قَبْلَ التَّحْلِيَةِ، فَلَا تَكْتُمِلُ الْخَشْيَةُ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَتَخَلَّصِ الْقَلْبُ مِنْ خَشْيَةِ غَيْرِهِ.

بِلَاغَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُتِمَّ نِعْمَتِي﴾:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُتِمَّ نِعْمَتِي﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لَئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، وَهُوَ تَعْلِيلٌ ثَانٍ لِقَوْلِهِ: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوُجُوهُكُمْ شَطْرَهُ﴾، فَالْمَعْنَى: أَمَرْتُكُمْ بِذَلِكَ لِأَتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ بِاسْتِيفَاءِ أَسْبَابِ ذَلِكَ الْإِتِمَامِ، وَمِنْهَا أَنْ تَكُونَ قَبْلَتُكُمْ إِلَى أَفْضَلِ بَيْتِ بَنِي اللَّهِ تَعَالَى⁽³⁾.

وَوَجْهُ النِّعْمَةِ فِي ذَلِكَ التَّحْوِيلِ؛ أَنَّهُ تَضَمَّنَ إِجَابَةَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ

التَّخْلِيَةُ مَقْدَمَةٌ
عَلَى التَّحْلِيَةِ،
فَمَنْ أَرَادَ خَشْيَةَ
اللَّهِ، فَعَلَيْهِ بِنْبِذُ
مَا سِوَاهُ

وَجْهُ النِّعْمَةِ فِي
تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ

(1) الدِّزَّة، تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: 1/350.

(2) التَّسْفِي، مَدَارِكُ التَّنْزِيلِ: 1/143.

(3) ابْنُ عَاشُور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 2/47.

كَانَ يُقَلَّبُ وَجْهَهُ فِي السَّمَاءِ، وَلَمَّا فِيهِ مِنْ تَشْرِيفِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ،
وَإِحْيَاءِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ، وَتَأْلِيفِ الْعَرَبِ، وَلِأَنَّ ذَلِكَ إِذَا نُ بَفَتْحِ
مَكَّةَ، وَإِزَالَةِ الْأَوْثَانِ، وَإِقَامَةِ دَعَائِمِ الْإِسْلَامِ، وَتِلْكَ كُبْرَى النِّعَمِ⁽¹⁾.

معنى الوُضْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾:

الاهتداء مطلبٌ
عزيرٌ وقائمٌ
بنفسه في
تحويل القبلة

الْعَطْفُ هُنَا يُفِيدُ أَنَّ رَجَاءَ الْهَدَايَةِ لَكُمْ، هُوَ مِنْ غَايَاتِ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ،
فَهِيَ عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَأْتِمَنَّ﴾، أَي: أَمَرْتُكُمْ بِذَلِكَ رَجَاءً أَمْتِالِكُمْ،
فِيحْصُلُ الْاهْتِدَاءُ مِنْكُمْ إِلَى الْحَقِّ⁽²⁾، فَالْاهْتِدَاءُ مَطْلَبٌ مُسْتَقِلٌّ قَائِمٌ
بذاته من مطالب تحويل القبلة؛ فَإِنَّ التَّحَوُّلَ يَحْتَاجُ إِلَى ثَبَاتِ الْمُؤْمِنِينَ
عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالِاسْتِجَابَةِ لِكُلِّ مَا أَمَرَ بِهِ الشَّرْعُ.

معنى الرَّجَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾:

لا يُوصَفُ اللهُ
تعالى إلا بما
يليقُ بِجَلَالِهِ
وَكَمَالِهِ

لَا يَصِحُّ إِجْرَاءُ مَعْنَى بَعْضِ الْأَفْظَادِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْهَا الْأَفْظَادُ
الَّتِي تَدُلُّ عَلَى التَّوَقُّعِ وَالرَّجَاءِ وَالطَّمَعِ، فَ(لَعَلَّ) فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ﴾، مَجَازٌ فِي لَازِمِ مَعْنَى الرَّجَاءِ، وَهُوَ قُرْبُ ذَلِكَ وَتَوَقُّعُهُ، وَمَعْنَى
جَعَلَ ذَلِكَ الْقُرْبَ عِلَّةً، أَنَّ اسْتِقْبَالَهُمْ الْكَعْبَةَ مُؤَذِّنٌ بَأَنَّهُمْ يَكُونُونَ مُهْتَدِينَ
فِي سَائِرِ أُمُورِهِمْ⁽³⁾، فَالرَّجَاءُ مِنَ النَّاسِ لَا مِنَ اللَّهِ، فَتَعَالَى اللَّهُ عَنْ
ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا⁽⁴⁾، أَوْ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ (لَعَلَّ) وَعَسَى) مِنَ اللَّهِ وَاجِبَةٌ⁽⁵⁾.

الإِجْزَاءُ الْبَلِغُ لِعِلَلِ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ:

الإِجْزَاءُ وَالْبَيَانُ،
لِقَضِيَّةِ تَحْوِيلِ
الْقِبْلَةِ ذَاتِ
الْأَهْمِيَّةِ الْكُبْرَى

لَقَدْ أَوْجَزَ الْقُرْآنُ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ، عِلَلَ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ، بِثَلَاثَةِ
اعْتِبَارَاتٍ؛ مَا يَتَعَلَّقُ بِعِلَاقَتِنَا بِالنَّاسِ، وَمَا يَخُصُّ إِنْعَامَ اللَّهِ وَعَطَاءَهُ
الْمُغْدِقَ، وَمَا يَرْتَبِطُ بِالْأُمَّةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِمْ،
فَكَانَ تَحْوِيلُ الْقِبْلَةِ يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الِاعْتِبَارَاتِ، وَذَكَرَتِ الْآيَةُ عِلَّةً لِكُلِّ

(1) أَبُو زَهْرَةَ، زَهْرَةُ التَّفَاسِيرِ: 1/461.

(2) ابْنُ عَاشُورَ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 2/47.

(3) ابْنُ عَاشُورَ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 48 2/47.

(4) أَبُو زَهْرَةَ، زَهْرَةُ التَّفَاسِيرِ: 1/461.

(5) الْقُنُوجِيُّ، فَتْحُ الْبَيَانِ: 1/314.

اعْتَبَارٍ، وبالمُجْمَلِ تُبَيِّنُ الآيَةُ أَنَّ هُنَاكَ ثَلَاثَ غَايَاتٍ، وَكُلَّ وَاحِدَةٍ تَتَعَلَّقُ بِجِهَةٍ: فقولُه: ﴿لَئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ تَتَعَلَّقُ بِالنَّاسِ، وقولُه: ﴿وَلَا يُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ تَتَعَلَّقُ بِاللَّهِ، وقولُه: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ تَتَعَلَّقُ بِالْمُؤْمِنِينَ، وهذا غَايَةُ الإِيجَازِ وَالْبَيَانِ، حَيْثُ أَوْجَزَ فِي ثَلَاثِ عِبَارَاتٍ الْغَايَاتِ الْمُرَادَةَ مِنْ قَضِيَّةٍ كَبِيرَةٍ وَخَطِيرَةٍ، وَهِيَ تَحْوِيلُ الْقِبْلَةِ.

❁ الْفُرُوقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

الْخَوْفُ وَالْخَشْيَةُ:

الْخَوْفُ يَتَعَلَّقُ بِالْمَكْرُوهِ وَبِتَرْكِ الْمَكْرُوهِ؛ تَقُولُ: خِفْتُ زَيْدًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: 50]، وَتَقُولُ: خِفْتُ الْمَرَضَ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: 21].

الْخَشْيَةُ خَوْفٌ
مَخْصُوصٌ،
يَقْتَرِنُ دَائِمًا مَعَ
التَّعْظِيمِ

وَالْخَشْيَةُ تَتَعَلَّقُ بِمَنْزِلَةِ الْمَخُوفِ مِنْهُ، وَلَا يُسَمَّى الْخَوْفُ مِنْ نَفْسِ الْمَكْرُوهِ خَشْيَةً، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: 21]، فَإِنْ قِيلَ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: 94]، قُلْنَا: إِنَّهُ خَشِيَ الْقَوْلَ الْمُؤَدِّيَ إِلَى الْفُرْقَةِ، وَالْمُؤَدِّيَ إِلَى الشَّيْءِ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَفْعَلُهُ⁽¹⁾.

الْخَوْفُ: تَوَقُّعُ مَكْرُوهٍ عَنِ أَمَارَةٍ مَظْنُونَةٍ، أَوْ مَعْلُومَةٍ، كَمَا أَنَّ الرَّجَاءَ وَالطَّمَعَ تَوَقُّعُ مَحْبُوبٍ عَنِ أَمَارَةٍ مَظْنُونَةٍ، أَوْ مَعْلُومَةٍ، وَيُضَادُّ الْخَوْفَ الْأَمْنُ، وَيُسْتَعْمَلُ ذَلِكَ فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ⁽²⁾.

وَالْخَشْيَةُ: خَوْفٌ يَشُوبُهُ تَعْظِيمٌ، وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ ذَلِكَ عَنْ عِلْمٍ بِمَا يُخْشَى مِنْهُ، وَلِذَلِكَ خُصَّ الْعُلَمَاءُ بِهَا، فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]⁽³⁾، فَهِيَ خَوْفٌ مَخْصُوصٌ، يَلْزَمُهُ التَّعْظِيمُ، فَلِذَا جَاءَ فِي الْآيَةِ مَنْهِيًّا عَنْهُ مَعَ الْمُعَانِدِينَ، وَمَأْمُورًا بِهِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، فَهُوَ الْحَقِيقُ بِأَنْ يُخْشَى، فَفِي الْآيَةِ تَعَلَّقَتِ الْخَشْيَةُ بِالْمَنْزِلَةِ، فَجَاءَتْ عَلَى الْأَصْلِ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 241.

(2) الراغب، للفردات: (خوف).

(3) الراغب، للفردات: (خشي).

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني، سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1444هـ - 2023م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2023م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم

الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2023.

مج. 2، 804 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 8-53-798-9948-978

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

مج. 2: سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-

ألفاظ أ-العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

التقييم الدولي: 8-53-798-9948-978

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984852 بتاريخ 2023/03/10م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»